الاستراتيج البحثي : أسس ومنهج عمل

أ.د. مضر خليل عمر

لا يحدث التطور عفويا ، ولا يأتي عن طريق الصدفة ، فحتى صدفة سقوط التفاحة سبقه ورافقه تفكير في حركة الاشياء للاسفل دوما و كيفية تفسيره . والعمل الجامعي لا يوفر فرصا ذهبية للتقدم العلمي والتطور المهني ما لم تتفاعل فيه روابط البحث العلمي ونشاطاته مع مفردات مواد المنهج التدريسي . يعرض المقال وجهة نظر شخصية في سبيل ارتقاء حامل الشهادة الجامعية العليا في سلم العلم وأداء الواجبات المهنية . اقدمها للحوار والنقاش الهادف ، و خدمة للجامعيين الشباب ، وعسى ان تفيد في تقليل الكم الهائل من حملة (الشهادات العليا) ممن يدور في دوامة الفراغ الهابطة .

التقدم هو حركة محددة الاتجاه ، حيثما يوجد هدف يتطلب تحقيقه او الوصول اليه . ومن الضروري ان يكون هناك سبيل محدد ، او اكثر ، للوصول وتحقيق المرام . وفي العمل الجامعي هناك طرق عديدة : منها التقليدي الذي يتبعه المعظم ، وطريق ملتوي يعتمده البعض لتحقيق اهدافا شخصية على حساب المستوى العلمي والقيم الجامعية والاخلاقية . وهناك طريق رصين يحقق الاهداف العامة اولا ويخدم العلم والمجتمع في وقت واحد ثانيا ، ومن خلال ذلك تجنى المقاصد الشخصية كنتيجة منطقية ثالثا . المقال معني بالطريق الرصين وهو يتطلب جهدا استثنائيا و عزيمة وارادة صلبة .

ففي الجامعة ثلاثة مستويات من حملة الشهادات العليا : مستوى الكم (البعض يسميهم القطيع) ، ومستوى المزايدين و مرتقي السلم الاداري – السياسي لتحقيق تميز في المجتمع ، ومستوى القلة من العلماء المثابرين ، و محاولات تحجيمهم و تهميشهم قائمة على قدم وساق وعلى مدار الساعة . ولا غرابة في ذلك ، فتلك هي سنة الحياة ، الصراع بين الخير والشر ، وهي قائمة في جميع مفاصل المجتمع ، وليس للمستوى التعليمي اثر في ذلك عدا زيادة حدته وتغليفه بمسميات واجراءات براقة خداعة .

ليكن واضحا ، من البدء ، ان الهدف المقصود هنا هو الارتقاء بالمستوى العلمي في الجانب النظري (العلم بالشئ هو ادراك لكنهه و مظهره) ، والتعمق به تحليلا ودراية به ، و التمكن منه منهجا واسلوبا وتطبيقا . وبهذا ، يستدل على ان التقدم العلمي للجامعي يستند على ثلاثة اركان أساسية هي:-

الركن النظري : الفكري ، فلسفة العلم ، فلسفة الاختصاص ، نظريات الاختصاص ،
الركن التحليلي : طرائق التحليل واساليبه الكمية و النوعية والنماذج والتجسيمات المتبعة ،
الركن المنهجي : العملي التطبيقي وليس الشكلي .

على الرغم من ان التربويين (مع احتراماتي لهم) يركزون كثيرا على الشكليات ويتعبدون في محرابها ، الا ان البعض منها ، عندما يطبق بشكل علمي سليم فانه يؤدي الغرض ويحقق نتائج باهرة . فخطة الدرس ، على سبيل المثال لا الحصر ، عندما تنظم قبل الدرس وليس بعده ، و تعد بشكل علمي هادف فانها تحقق نتائجا مذهلة . فالخطة فيها مجموعة اهداف معرفية و اساليب اجرائية للوصول الى الهدف . إنها خريطة الطريق ، يعتمدها المدرس بثقة واطمئنان ، ويتبعه الطلبة بسلاسة وتواصل ليصلوا الى الهدف في الوقت المناسب و باستيعاب مشترك للموضوع . انها منهج تفكير وعمل ، انها خطة هدفها تقدم الطلبة في سلم المعرفة ، ونجاح المدرس في مهنته ومسعاه .

والان ، هل لديك خطة محددة بزمن و فيها اهداف استراتيجية واخرى مرحلية تفصيلية ، و تضم اساليبا و اجراءات تنفيذية توصلك الى المستوى العلمي الذي تطمح ان تكون عليه ؟ اذا لم يكن لديك هذا ، او لم تتضح لديك الصورة بعد ، فناقش مع نفسك ، واجب بصراحة عن الاسئلة الاتية : -

– هل تكتب بحثا لغرض التدرج في سلم الترقيات (العلمية) ؟ اذا كانت الاجابة بنعم فانت ضمن المجموعة ، الذين لا يستطيعون قيادة أنفسهم ، والخوف من الانفصال عن (القطيع) . أذا كنت هكذا ، فانت بدون تمييز ذاتي عن غيرك من افراد القطيع .

– هل تكتب بحثا مستغلا غيرك ؟ حينها تكون ضمن فئة الكسب الحرام ، والالقاب العلمية الفارغة المحتوى ، و صعودك ممكن ، و هبوطك حتمي ولكن بشكل مخزي ، لأنك تبني هيكلا خاويا هشا لتقف على رأسه وتكون فوق الجميع (كما تتصور وتتخيل).

– هل تريد ان تكون انت كما انت بما تتميز به عن غيرك من مقدرة ومعرفة وعلم و خبرة ؟

– هل تريد ان تبني مستقبلك العلمي والمهني بتطوير خبرتك البحثية ؟

اذا كانت الاجابة بنعم عن السؤالين الاخيرين ، فانت امام طريق وعر ، يتطلب عزيمة لا تلين و صبرا جميلا ، وتحملا للمشاق و لتعليقات الفاشلين ومواقفهم السلبية والعدائية . هل انت مستعد لذلك ؟ اذن اعزم وتوكل على من يسهل درب العلم وطلبه ويجعل سالكه في مصاف المجاهدين في سبيله (بالتأكيد ليس جهاد ادعياء الدين الطائفيين المتطرفين) .

أشير آنفا الى الاركان الثلاث للتقدم العلمي ، وسيتم توضيح مفردات الخطة على اساسها . قد تكون الخطة صعبة و واسعة وعميقة في الوقت نفسه ، وانت غير مجبر عليها ، ولكن ان تبدأ ببعض من مفرداتها و تنتقي منها لاحقا المزيد خير لك من ان تبقى جالسا تحلم بالتقدم الذي لا يتحقق إلا بعصى سحرية او إتباع وسائل ملتوية . فطريق الحق صعب دوما وهذا ما يجعله جهادا للنفس في سبيل مرضاة الله عز وجل .

الركن الاول : الاساس الفكري

العلم تأمل ، ومنهج فكري ، و تبصر في الحياة وفي الكون ، وبدون ذلك فان الاجراءات الشكلية التي تمارس باسم العلم والبحث العلمي هي في الواقع دوران في حلقة مفرغة لا طائل منها غير البقاء في المكان نفسه (فكريا) . فالمنظور نفسه ، والاجراءات ذاتها ، فكيف يتأتى التقدم والانتقال الى موقع علمي آخر ؟

ولتحقيق النقلة النوعية ، وتوسيع دائرة الحركة وجعلها لولبية متسعة الحلقات تبدأ بحلقة صغيرة تكبر مع كل حركة تتسع لتضم مجالا اوسع و تاخذ منظورا آخر ، و تضيف للفكر الجديد ، وتحدّث القديم منه ، لابد من : -

1) الاطلاع المستمر على الجديد في الفكر العلمي ، الاختصاص على وجه التحديد . والفكر العلمي يختلف كليا عن تاريخ الفكر ويتجاوزه ، فهو متجدد دوما مع كل ابتكار علمي وظهور نظريات في الاختصاص و في العلوم الاخرى ، ومع استحداث لتقنيات جديدة تستخدم لاغراض جمع المعلومات ونشرها و تحليلها وعرضها . ومن لا يرتوي من نهر المعرفة المتجدد يبقى ريقه جافا ، وصوته غير مسموع .

والجديد في الاختصاص يتم عرضه سنويا في كتب و مجلات علمية متخصصة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد في الجغرافيا عنوانات مثل Progress in Human Geography , Progress in Physical Geography : ، وفي الموضوعات التي تناقش في المؤتمرات الدولية التخصصية الدورية . فالاطاع على الموضوعات المناقشة و المقترحات والتوصيات الناجمة عنها تؤشر مسار تقدم الاختصاص وحركته .

2) النافذة الاخرى للاطلاع على الجديد في الاختصاص ، هي الشبكة الدولية (الانترنيت) و صفحات الاقسام العلمية والمواد الدراسية و الموضوعات البحثية التي تنجز من قبل الملاك التدريسي – البحثي ومن خلال مشاريع الدراسات العليا في الجامعات العالمية الرصينة .
3) وبما أن العلم قد اصبح للحياة ، وارتبط بما يجري على سطح الكرة الارضية ، التي اضحت قرية صغيرة تشترك في (معظم ان لم يكن جميع) المشاكل البيئية و الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فان الاطلاع على التوجهات العالمية لدراسة هذه المشاكل وسبل معالجتها امر لا مناص منه ، ويتم ذلك من خلال متابعة المؤتمرات الدولية التي تنظمها منظمة الامم المتحدة لتحديد الاهداف الاستراتيجية و الموضوعات التي على الدول والشعوب الانتباه اليها ومعالجتها بمنظور عالمي متكامل . فالعولمة قد اضافت للعلوم اهدافا جديدة ، وميادين بحثية لم يكن التفكير فيها مطروقا ولا العمل فيها ميسورا (الجانب الايجابي للعولمة) .
4) وقبل هذا وذاك ، وبعده لابد من ربط البحث العلمي بحاجة المجتمع المحلي (الاقليم الوظيفي للجامعه) ودراسة مشاكله ، و تنوير الفكر التخصصي النظري واختباره بمعطيات الواقع . وبما أن الواقع متحرك ، ونجهل غالبا كنهه و طبيعة حركته ، فجوهري ان ترتبط المعرفة العلمية بالواقع اكثر من النظريات التي عفى الزمان على البعض منها وأن تبنى الخبرة البحثية عمليا بهذا الواقع لتخدمه و تتطور من خلال ذلك .
5) الاطلاع على الجديد من نشريات مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع المدني ، والجهاز المركزي للاحصاء على وجه التحديد . فمن خلالها يمكن التعرف على توجهاتها و ما يمكن الافادة منه ليكون مادة للبحث العلمي والتقصي . وارتباط هذه المؤسسات و المنظمات بنظيراتها في دول العالم الاخرى ، وما تعالجه وتعاني منه من مشكلات يضيف مساحة شاسعة لدائرة التفكير وموادا ثرة للتعاون البحثي الهادف خدمة المجتمع و تحقيق تقدمه . فالباحثون من خارج هذه المؤسسات والمنظمات يشكلون جيشا فكريا منوع التخصصات والخبر والرؤى يضيف للمسئولين الكثير في الوقت الذي ينتفع من نتائج جهدهم المنشور رسميا . وبتعاون الجميع طوعا لخدمة المجتمع تختصر المدد ويتحقق التقدم العلمي والاجتماعي في وقت واحد .

الركن الثاني : التقنيات التحليلية

مع تقدم العلوم و الاشتراك في التقنيات المختلفة : جمع معلومات ، تحليل كمي ، نوعي ، نمذجة ، تجسيد و تجسيم ، تصور سيناريوهات ، وغيرها من قواعد بيانات مكانية و موضوعية فان الباحث العلمي امام خيارات واسعة ، ولكنها ليست مطلقة . اي ان طبيعة الموضوع و نوعية البيانات هي التي تحدد طريقة المعالجة لتحقيق هدف البحث .

ويعني هذا ان الاطلاع على الطريقة المقصودة و التمكن منها قبيل استخدامها امر لا مناص منه فعلى الباحث ان يعد العدة لذلك . مقترحي ان تتصور بان عليك تقديم محاضرة عن التقنية التي تريد استخدامها ، وبهذا تجمع معلومات وتنظمها و تطبقها فرضيا قبل استخدامها في البحث . و ان تنوع الطرائق التي تستخدمها ، اي ان لا تعتمد الطريقة ذاتها مع كل بحث ، فكلما تنوعت ادوات التحليل التي تتمكن منها كلما اتسعت مساحة حركتك و بالتالي تقدمك العلمي و تعمقت خبرتك البحثية وتنوعت .

وحتى في حال الافادة ممن لديه خبرة في التحليل فالقرار لك في اختيار الطريقة وتفسير النتائج ، فالبحث يحمل اسمك و بصماتك ، وهو ارثك الفكري ، والصدقة الجارية لك بعد عمر طويل باذن الله . ولكن تذكر ،

ان الصدقة الجارية هي فقط من المال الحلال بالكامل . فلا تبخس حقوق الاخرين و دورهم في انجاز النشاط الفكري الذي يحمل اسمك .

ومن الضروري عند الاطلاع على كتابات الاخرين ذات الصلة التعرف عن قرب على طرائق التحليل المستخدمة و كيفية عرض النتائج وتفسيرها و استخلاص الاستنتاجات منها . والاهم من هذا نقد ذلك ، تبيان الايجابيات والسلبيات وتقييم العمل اجمالا . مثل هذه الممارسات النقدية تفيد في تعميق المعرفة و اكتساب خبرة في التقييم ، وبالتالي الافادة من الايجابيات و تجنب السلبيات . بعبارة اخرى ، تجنب التقليد الاعمى .

الركن الثالث : منهجية العمل

يرتبط منهج البحث و منحاه approach بالهدف من انجازه ، فالبيانات نفسها يمكن استخدامها وتحليلها باكثر من طريقة وبمناهج منوعة لتؤدي اغراضا مختلفة . وكل هذا مرهون بفكر الباحث ومنظوره الى موضوع مشكلة البحث . فبيانات الفقر تعالج طبقا للخلفية السياسية (الايديولوجية) و الاختصاص (اجتماع ، اقتصاد ، سياسة ، جغرافيا) للباحث لتعرض وجهات نظر مختلفة للمشكلة ذاتها معتمدة البيانات نفسها .

إن الاطلاع على موضوعات المؤتمرات العالمية (تخصصية ، ومنظمات دولية) يساعد في اختيار الموضوعات والاتجاه الاحدث وتقديم الافضل مقارنة مع الاقران ، و الشعور بالتقدم المحرز نتيجة ذلك . فاهداف الالفية الثالثة و التهيؤ للمؤتمرات الدولية و مطالب المنظمات العالمية للتركيز على موضوعات : حقوق الانسان ، التنمية المستدامة ، الصحة الانجابية ، الهبة الديموغرافية ، الشباب ، الجندر ، تلاقح الحضارات وتكاملها ، المناطق الهشة ، التغيرات المناخية ، التنوع الحيوي ، والمخاطر البيئية وغيرها ، جميعها تمثل موضوعات للكتابة ، و يمكن ربط الموضوعات البحثية الاخرى بها لتكون بمنحاها (اتجاهها وترتبط باهدافها) . وبذلك تتحق الحركة المتوازية للبحث العلمي مع حركة المجتمع العلمي الدولي واتجاهاته التطبيقية .

كذا الامر عند الاطلاع على مشاكل مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع المدني ، وذلك بتكييف موضوعات البحث و منهجيته للربط بين الجانبين الاكاديمي و المهني (للمؤسسة) . وبتحقيق ذلك يكون للبحث العلمي قيمة عملية و تزداد اهميته عند الاخرين ، و يرتقي الباحث في سلم المعرفة والخبرة في مجتمع الاكاديميين .

الاستراتيج البحثي الشخصي

التقدم العلمي يبدأ شخصيا ، و باتساع تأثيره يتحول الى موجة اجتماعية ، وبتكرار حدوث الموجات و انتشارها وتغطيتها لمساحة واسعة حينها يحدث التقدم العلمي . وما نحتاجه لتحقيق التقدم العلمي هو فسح مجال لمن يمكن ان يوقد نار المعرفة في شباب المجتمع ، و تحجيم دور اولئك ادعياء العلم و سدنة بابه من حملة الالقاب دون جدارة وكفاءة .

ومن اجل ان تحقق التقدم العلمي لشخصك ، واختصاصك ، و البلد ، اقترح الاتي : -

1- كتابة بحث علمي رصين واحد سنويا ، فيه الجديد : موضوع او تقنية او منحى ،
2- بالنسبة للباحثين المنتسبين الى المراكز والوحدات البحثية ، المشاركة في :
   أ- مؤتمر تعقده الجامعة التي تنتمي اليها ، لدعم الجامعة و التعريف بقدراتك ،
   ب- مؤتمر خارج المحافظة التي انت بها ، للتعريف بجامعتك وبمستواك العلمي ،
   ج- مؤتمر خارج القطر ، للتعرف على نتائج الاخرين من بلدان اخرى و التعريف

بجامعتك و بلدك وبامكاناتك الذاتية .

3- اختيار موضوع عام رئيس لكتابة سلسلة ابحاث فيه مكملة لبعضها البعض ، معالجة الموضوع من زوايا متباينة ، مغطية معطيات مختلفة منه ، مما يعطيك فرصة للتمكن منه والتعمق به و التخصص فيه . ويمكن الانتقال بين الموضوعات المختلفة ، دوريا ، خاصة عندما تكون ذات ارتباط ببعضها البعض .

4- اعتماد طرائق تحليلة مختلفة مع الابحاث دون التركيز على طريقة يتيمة واحدة .

5- العلوم متداخلة الموضوعات والتقنيات ، وعند الكتابة في موضوع يهتم به اختصاص آخر فمن الجوهري الاطلاع على كتابات ذلك الاختصاص ونظرياته ذات العلاقة والافادة منها .

6- نقدك انت لما تكتبه وذلك بتقمص شخصية ترى ان ما تكتبه سيخضع الى تقيمها ونقدها ، أي اتباع طريقة قبعات التفكير الست (الملونة : البيضاء ، الحمراء ، السوداء ، الصفراء ، الخضراء ، والزرقاء) . يساعدك ذلك في تجنب الهفوات ، و توضيح وجهة نظرك وافكارك بشكل افضل . أي أن تكتب ليقرأ من قبل الاخرين ويفهم من قبلهم بيسر ، فانت لا تكتب لنفسك ، بل للتعريف بامكاناتك و افكارك و خبرتك العلمية .

7- اشترك في كل دورة تدريبية تشعر ان فيها فائدة لك ، سواء اكانت مجانا او مقابل مال ، فمهما كانت كلفتها المادية فان الفائدة العلمية والمعنوية منها تفوق ذلك بكثير . وسواء اكانت المشاركة عبر النت (اون لاين) ام بحضور جلساتها . وركز على الدورات التي تقدم من جهات رسمية معروفة ، ومن الجوهري تطبيق كل ما تعلمته منها . وفي حال صعوبة ذلك لاسباب خارج ارادتك ، فاعتمد ما تعلمته في دورات انت تقيمها لغيرك .

8- لتكن الابحاث التي تكتبها هادفة ارتقاءك العلمي و تعميق الخبرة البحثية و توسيع لدائرة المعرفة . بمعنى ان يكون الكسب العلمي هو الهدف وليس الوجاهة وما يتعلق بالالقاب من امتيازات . فالامتياز الحقيقي والدائم هو المستوى العلمي الذي تحققه وترتقي اليه بجهدك وامكاناتك . فاي موقع تصل اليه حينها تكون أهلا له ، و مؤهلا للارتقاء لما هو اعلى منه .

ابني شخصيتك العلمية بيدك وبالاعتماد على نفسك مستفيدا من المتوفر في بيئتك من امكانات ، وتذكر ان الرياضي الذي يعتمد المنشطات يحقق (النجاح الكاذب) ولكنه سريع الزوال . فاعمد الى النجاح الدائم ، و الامتلاء الفكري و المعرفي والخبرة المناسبة للموقع الذي تحتله . واترك بعدك نتاجا رصينا يكون لك صدقة جارية عن حق و جدارة ، وبهذا تكون قد خدمت نفسك و اختصاصك و بلدك .

والله ولي التوفيق .